

قصة عشور القديسة هيلانة

على خشبة الصليب

أسطورة أم واقع

بقلم الدكتور اسحق عبيد

مدرس المصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة عين شمس

تقديم للنص :

هذا جزء من المخطوطة ١٦٤٩ (بدار الكتب المصرية) ، وهو من كتاب لا نعلم اسم صاحبه ولا حتى عنوانه ؛ لأن المخطوطة مبتورة الأول والآخر . والجزء المتبقى يبدأ برحلة القديسة هيلانة — والدة الامبراطور قنسطنطين العظيم (٣٢٤ - ٣٣٧) — إلى الأرض المقدسة بحثاً عن صليب الصلبوت ، وينتهي باعتلاء الإمبراطور يوستنيانوس (٥٢٧ - ٥٦٥) العرش . فهو في الواقع سجل لتاريخ ملوك القسطنطينية .

ومؤلف هذا الكتاب — طى ما يبدو — ليس عربياً ، لأن لغته دارجة للغاية ولأنه يستخدم ألفاظاً يونانية كثيرة من قبيل « فوطاغون » ، « ثاولوغوس » ، « ابروطوريون » . . . الخ . كما أن أسماء القديسين الواردة بالنص مكتوبة في صيغتها اليونانية ؛ ولذا فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن الكاتب يونانى ومن جماعة الإكليروس . وهو بالتأكيد أرثوذكسى من أتباع مجمع خلقدونية (٤٥١ م) ؛ لأنه يتحدث عن الأرمن واليعاقبة و « الحبش » والنساطرة على أنهم هراطقة .

والجزء الذى نعالجه هنا خاص برحلة القديسة هيلانة إلى بيت المقدس بحثاً عن خشبة الصليب التى صلب عليها المسيح . وهذا يجرنا إلى الحديث عن القديسة هيلانة فى شيء من الموضوعية التاريخية ؛ لأن قصة اكتشافها للصليب قد أثارت جدلاً كبيراً بين الدارسين ، ولم ينتهوا فيه إلى رأى قاطع .

والإمبراطورة هيلين ، أو هيلانة ، ولدت حوالى سنة ٢٢٥ م وتوفيت حوالى سنة ٣٣٠ ، ويمتثل بيوم عيدها فى الثامن عشر من أغسطس كل عام . وقد ظل

المؤرخون فترة طويلة يمتقدون أنها بريطانية الأصل ، ولكن ليس هناك من الدلائل ما يؤيد هذا الرأي . والنظرية السائدة الآن أنها ولدت في مدينة دريانوم (هيلينوبولس) في آسيا الصغرى ، من أسرة رقيقة الحال . وقد تعرف عليها الامبراطور قنسطانطيوس فتزوجها ، ثم أنجبت له قنسطنطين سنة ٢٧٤ ، على أنه في سنة ٢٩٢ طلق قنسطانطيوس هيلانة لأسباب سياسية .

ولا نعلم بالضبط متى اعتنقت هيلانة الديانة المسيحية ، ولكننا نعرف أنه بعد أن أعلن ولدها قنسطنطين وزميله ليكنين قرار التسامح مع المسيحية — فيما عرف خطأ باسم « مرسوم ميلان » — في سنة ٣١٢ — راحت الإمبراطورة الأم هيلانة تولى كل اهتمامها لترقية شأن المسيحية في أرجاء الإمبراطورية الرومانية . ولما كنا نعلم أن قنسطنطين العظيم كان يكن لأمه كل التبجيل والتقدير ، فإنه يمكن القول إن نشاطها « المسيحي » كان يتم برضاء من جانب الإمبراطور الابن .

وفي أخريات سنى عمرها قامت القديسة هيلانة بزيارة طويلة لبيت المقدس ، حيث وزعت العطايا والهبات بمسحاء زائد على الفقراء . كذلك ساهمت بذهبها ورأيها في إنشاء الكثير من الكنائس هناك .

ويرتبط اسم هيلانة بوجه خاص باكتشاف صليب الصلبوت الذى وجدته — حسب قول الروايات — مطموراً بجوار تل من تلال الجلجثة . ولكن المؤرخين المعاصرين لا يذكرون شيئاً ألبتة عن دور هيلانة في مسألة العثور على الصليب المقدس ، وإن كان من المؤكد أنه قد عثر عليه في القرن الرابع . ويرجح أن الإمبراطورة القديسة كانت قد توفيت قبل اكتشاف خشبة الصليب . ورغم هذا فإنه ابتداء من نهاية القرن الرابع ارتبط اسم هيلانة بصليب الصلبوت .

أما التساؤل عما إذا كانت هذه الخشبة التى عثر عليها ، هى فى الحقيقة الصليب الحقيقى أم لا ؛ فهذا موضوع آخر لا أزمع لنفسى المقدرة على الخوض فيه ، فهو من الأمور المستعيلة فى الدراسة التاريخية اليوم .

هذا وقد زدونا الحواشى بمادة تاريخية لقائمة القديسين الذين ورد ذكرهم فى هذا النص حتى تكون الفائدة كاملة .

النص

« وللعين أتوا بخوف ووقفوا أمامها^(١) ، فابتدت وقالت لهم : أروني للسكان الذي فيه محبو^(٢) صايب المسيح ، فنكروا وقالوا لا نعلم أصلاً ولا سمعنا منذ قط عن هذا . فقالت لهم أيضاً قولوا لي الحق كيلا أميتكم ، فنكروا أيضاً . حينئذ قالت للأجناد : أشعلوا النيران وأحرقوهم . فلما سمعوا ذلك ارتعدوا ، وللعين أجابوا وقالوا للملكة : ياسيدتنا : إن أردتي أن تجدي الصليب وغيره مما توتريه^(٣) نخذي يهودا هذا واستفحصيه . وهو يعرف جميع ما هو رأيك ومقاصدك ، لأنه نبي وابن رجل صديق ، يعرف الناموس في الغاية أفضل من الكل . حينئذ أمرت بتخليتهم^(٤) ومسكت يهودا فقط . وقالت له : الحياة والموت موجودان ، فاختار لك من الاثنين ما تريد . فأجاب وقال لها : ماذا تريد ياسيدتي أن أصنع ، فقالت له الملكة : إن أردت أن تمشي هاهنا وفي العالم السماوي ، قل لي أين هو مخفي صليب المسيح . فأجاب يهودا : ليس لنا علم إذ كنا بعد شباب ، وما وصلنا كذلك الآوان ، ولسنا نعرف ولا سمعنا من أجله شيء ، فاعمل الذي يترسميه^(٥) . فأمرت أن يضعوه في بير ناشف عميق ، فمكث هناك باستيثاق حزين سبعة أيام بغير خبز ولا ماء ، حتى صار كجأيت^(٦) . فزعق صوتاً عظيماً ، وقال : أخرجوني من هاهنا ، وأنا أريك مكان صليب المسيح . وهكذا أخرجوه وأتوا به أمام منبر الملكة . فمضوا معاً إلى السكان الذي صلب فيه الرب . ولم يعرف جيداً أين الصليب مخفي . حينئذ وقع أمام الملكة مصلياً قايلاً : أيها الرب السيد إلهنا ، يامن خلقت الإنسان على صورتك ومثالك ، يامن تسود على السموات والأرض والملائكة والبشر ، يامن أرسلت ابنك الوحيد ربنا يسوع المسيح الذي لأجل خلاصنا اقتبل الصلب ، وقام لثلاثة أيام^(٧) ، منك نطلب ونحملك تنصرع ، نحن عبيدك لكيما تظهر لنا السكندر الخفي الذي هو الصليب الكريم الصانع الحياة ، حتى إذا استوعبنا منه رائحة ذكية ، نمتلي نعمة روحانية ، وأنا الخاطي أومن به وأحوذ غفران ومسامحه . ولما تم صلواته ، للعين ياله من عجب نزل السكان ،

(١) أمام الإمبراطورة هيلانة . (٢) محباً . (٣) تبغيه .

(٤) إطلاق سراحهم . (٥) فاعمل ما تبغين . (٦) حتى أشرف على الموت .

(٧) وقام بعد الدفن بثلاثة أيام .

وخرج دخان ورايحته بخور طيب عطره من المكان الذى كان فيه الصليب محتفياً . فتعجبت الملكة وسائر الناس ، وحينئذ شكر يهودا الله وقال : بالحقيقة يامسبحى أنت هو ابن الله الحى ، أنت هو مخلص العالم ، وأطلب منك أن تحصينى مع أول شهدائك استفانوس^(١) لأننى أنا من جنسه وقبيلته . ثم أخذ الفاسات^(٢) مع الأراخنة الكثيرين ، وحفروا عشرين قامة ، فوجدوا الثلاث صلبان : صليب المسيح وصليب اللسان اللذان صلبا معه^(٣) . فلما نظرت الملكة ذلك فرحت كثيراً . وحينئذ قالت ليهودا : من أين تعرف أيهما هو صليب المسيح ، وبعد هزيمة اجتازوا بيت لى يدفنوه ، وأن يهودا للحين أتى به إلى أمام الملكة ووضع على اللات الصليب الأول فلم يصير آية^(٤) ، ووضع الثانى فكان كذلك ، لأنهما كانا صليبان اللسان . فلما وضعوا الصليب الثالث الذى هو صليب المسيح ، فلحين قام الميت واعتلن مجد الله وقوة الصليب .

فلما رأت زمرة اليهود هذا العجب آمنوا ربنا يسوع المسيح . وأما المغبوبة

(١) استفانوس : هو أول الشهداء ؛ استشهد فى أورشليم حوالى سنة ٣٥ م ، ويحتفل بعيدة فى السادس والعشرين من ديسمبر . وكل ما يعرف عن أول الشهداء مسجل فى الإصحاحين السادس والسابع من « أعمال الرسل » . وقد كان استفانوس « رجلاً يفيض لعناً وقوة » ، وهو بلا شك يهودى ولكنه كان يتكلم اليونانية ، لأنه كان على رأس الشمامسة السبع الذين اختارهم الرسل لرعاية شئون الأرمال الناطقات اليونانية فى أورشليم . وكان استفانوس مبشراً ممتازاً « أتى بكثير من الأعاجيب والمعجزات » ، ولذا فإن الجمع اليهودى أدانته وألصق به تهمة « التجديف » . وأمام هذا الحجم تحدث القديس فلغن حاخامات اليهود لمقاومتهم « الروح القدس » ، مذكراً لإياهم أن أجدادهم أيضاً قد اضطهدوا الأنبياء ونكلوا بهم ، تماماً مثلما فعل رؤساء كهنة اليهود حينئذ مع المسيح بأن قتلوه . وبعد هذا صاح استفانوس وهو فى شبه حلم : « انظروا هو ذا ابن الإنسان يدخل أبواب النعم ليقف عن يمين الله الآب » . وعندها اقتيد استفانوس إلى خارج مدينة أورشليم حيث رمته اليهود بالحجارة ، وقد صرخ وهو يسقط شهيداً : « سيدى يسوع ، تقبل روح عبدك الأمين ... يا لهلى اغفر لهم » . وكان يقف عند هذا المشهد شاول الطرسوسى العدو اللدود للمسيحيين ، الذين لقوا على يديه صنوفاً من التنكيل . وقد صار شاول هذا فيما بعد أستاذ المسيحية الأول فهو القديس بولس الرسول .

(٢) الفؤوس .

(٣) صلب هذان اللسان العاتيان مع المسيح : واحد عن يمينه وآخر عن يساره .

(٤) أى معجزة .

هيلانة فرحت كثيراً ، وابتهجت ومجدت الله الذى أهلهها^(١) لهذه النعمة ، وتمجبت من أمانة يهودا ، كيف أظهر مثل هذا السعى بعد الجهد ، وأخذت الذى تاقب اليه وطلبتة : أعنى الصليب المكرم ، وعملت له صندوق ذهب بحجار ثمانية ولولو نفيس ، ووضعت فيه بوقار وخوف كثير فعملته . حينئذ استدعت يهودا وقالت له أن يبحث عن المسامير التى سمر بها المسيح . وطلب يهوداً مع بقية النصارى ، فلعب المسكان الذى كانوا فيه ، وحفروا فوجدوهم يلعبون كالشمس فتناولتهم الملكة ، ووضعتهم مع الصليب المكرم .

وأما يهودا فبعد اعتناؤه^(٢) ، عملته الملكة رئيس كهنة لأورشليم . وبعد ذلك بنت كنائس عظيمة فابقة بما أنها مومنة وورعة وحسنة العبادة فى مكان قبر الرب ، ومكان الجاجلة^(٣) وبيت لحم ، وجبل الزيتون ، وطور ثابور ، والأماكن الأخرى ، الذى تردد المسيح بها ، وعلم وتألم بالجسد ، وأيضاً هياكل كثيرة التى نكتبتها باختصار :

فالأول قبر الرب الصانع الحياة ، الذى هو هيكل عظيم ومدور البناء ، وهو فى وسط أورشليم المدينة المقدسة ، وله قبتين وقناطر حسنة ملاصقات الهيكل المقدس . ومن بعد يستبين رسم صورة الثالوث المقدس . وأما القبة الواحدة التى هى فوق القبر المقدس فإنها مغطاة ، ومن هناك ينزل النور البهى نور القيامة المقدس فى يوم السبت العظيم . وأما القبة الأخرى فمن خارج ملبسة برصاص ، ومن داخل مربوطه بالأخشاب إلى حد زنار الحائط . ومن نازل مزوقة ببلور مذهب صور جميع الأنبياء والقديسين قسطنطين وأمه هيلانة . ومن تحت رخام أحمر فى الحائط منقوش وداير السكايتخومانا القبر المقدس ثمانية عواميد رخام منقوش ، وثمانية ركائز طوال : فالعواميد فى الرواست وتحت الصخر ستة عشر عامود غلاط ، وركائز طوال ثمانية . وفى وسط القبة التى بصخر القيامة قبة لطيفة صخرية ، وفى

(١) ألهمها .

(٢) أى بعد قبوله المعمودية واعتناقه المسيحية .

(٣) الجاجنة : المسكان الذى صلب فيه المسيح .

وسطها قبر الرب المقدس . وفي دخولك من باب القبر المقدس هناك الحجر الذى دحرجه الملاك فى فم القبر ، وهو مثل المائدة المقدسة ، والقبر المقدس ، فهو رخام لطيف ، وفوقه قناديل غير مغطاة ثمانية وثلاثين . وهناك مصور دفن المسيح وقيامته وصموده ، ودائره جميعه مرخم . ومن هناك بقليل كنعجو خطوتين الحجر الذى جلس الملاك فوقه وقال للنسوة : يسوع تطلبن ، قد قام ، ليس هو ها هنا . وفوق الحجر معلق أيضاً أربع قناديل غير مغطاة ، وفوق القبر المقدس قبة صغيرة مغطاة مرصعة برصاص ، يحملها إثني عشر عامود رخام ، مذهبات الروس ، مزوقات كلهم بفسيفسه . ومن هناك ينزل النور المقدس يوم السبت العظيم . ودائر القبر المقدس ، من ناحيته البرانية ، هناك كنائس الأراطقة^(١) : الأرمن^(٢) واليعاقبة^(٣) والحباش^(٤) والنساطرة^(٥) ، والأرثوذكسيين لهم الكنيسة الكاثوليكية . وفيما بين القبتين قنطرة كبيرة مصورة بيلور : أيقونات الصعود والبشارة ، ومعلق هناك قنديل ساهر ، وتحت التبة فى الصخر نصف الدنيا ، وهناك قناديل كثيرة . وهناك هيكل الكنيسة مصور ومكتوب دائره : معنا هو الله فاعلموا أيها الأمم وانهمزوا لأن الله معنا . ودائره إثني عشر عامود وأربعة قناديل ، وهناك كراسى البطارقة يزدهرون . وهناك قناديل ثلاثين ، وخلف الهيكل المقدس هناك حبس المسيح ، ومنه خمسة عشر قدم ، مكان القيود التى وضعوها فى رجلي المسيح ، مرخم . وفيه مائدة حيث يقعدسون ، وهناك أربعة قناديل غير مغطاة ، وأمام المكان الذى عملوا

(١) المراطقة .

(٢) الأرمن : اختلف الأرمن مع كنيسة بزنطة منذ أيام نجم خلدونية (٤٥١ م) ، وهم أميل إلى الاعتقاد بالطبيعة الواحدة للمسيح ، فهم فى عداد المنافرة من وجهة النظر الخلدونية (الأرثوذكسية) .

(٣) اليعاقبة : هم منافزة (أصحاب الطبيعة الواحدة للمسيح) سوريا . وقد اتخذوا اسمهم من زعيمهم يعقوب برادايوس من ارها الذى تمكن ، بمعونة الامبراطورة تيودورة ، من تقوية نفوذ فرقته فى الشام .

(٤) الحبش : الأجاش أيضاً يؤمنون بالطبيعة الواحدة للمسيح ، مثلهم فى هذا مثل أقباط مصر ، الذين حرّموا من المشاركة فى أعمال نجم خلدونية ثم أدينوا بالهرطقة .

(٥) النساطرة : هم أنباغ نسطوريوس الذى قال إن العذراء مريم أم المسيح فى طبيعته البشرية لا الإلهية ، وقد أديننت تعاليمه فى نجم افيديوس الاول سنة ٤٣١ م .

فيه مسامير الصليب ، وقدامه بقليل في كنيسة الإفرائج ، في الأرضية ، رخامة مدورة ومثقوبة في وسطها ، فيضعون الناس آذانهم في الثقب فيسمعون صوت دوى وصدا كحس نقر النحاس ، وخلف الهيكل المقدس المكان الذى اقتسموا فيه الجند ثياب الرب وعن يسار القبر المقدس من ناحية الهيكل المقدس بتطلع^(١) في خمسة عشر درجة ، وبتدخل إلى مكان الجلجلة حيث نصب صليب المسيح والصلبين . وفي هذا المكان قال اللص : اذكرنى يارب ، ومصور صليبت المسيح . وهناك قناديل ساهرة خمسة عشر . والجلجلة مبنية قبو مصلب ومصور يبور صور الأنبياء وإبراهيم واسحق ويعقوب وأرضية الصحن كله منقوش فسيفسه . ومن خلف الجلجلة بتنزل ثلاثين درجة إلى تحت هناك هيكل القديسة هيلانة بأربع عواميد رخام . والعامودين ينضحون ماء بارداً بالصيف . وهناك كرسي القديس يعقوب أخو الرب ومنه بتنزل اثني عشر درجة ، فهناك المغارة التى كان بها يحتفى صليب المسيح ، وفيها مائدة يقدسوا عليها فوطاغون . وهناك أربع قناديل ، وأمام القبر المقدس الموضع الذى فيه كننا يوسف ونيقوديس جسد المسيح ولفوه بسباني نقية ، وهى ملبسة برخام أسود ساقى ، ومعلق هناك ثمانية قناديل لا تنطق . وهناك أربعة عواميد رخام وقبو مصلب ، فالقنطرة التى للكنيسة ثلاثين ، ولها ثلاثة أبواب فالواحد غربى الذى منه دخلت البارة مريم المصرية ومنعت من الدخول بواسطة ملاك . وفوق مصورة السيدة التى صارت كفيلة لهذه البارة . وأما البابين الآخرين قبلات ، فيهم ستة عواميد رخام وثلاثة سماقى وعتبة فوقانية لطيفة ، وفي قربهم قبة صخرية مصورة بفسيفسة ، وهو المكان الذى جلس فيه الملك للحكومة . وأيضاً صحن القبر المقدس منقوش برخام ، وهناك أربعة عواميد الذى وضعوا المائت فرقهم ، الذى أقامه صليب المسيح . وهناك ثلاث كنائس : قيامة المسيح والأربعين شاهد ، ويعقوب أخو الرب ، وحاملات الطيب . وهناك نظرت مريم المجدلية الرب يسوع المسيح من بعد القيامة وتوهمت أنه البستاني وقالت له : يارب أين وضع جسد يسوع . فأجابها الرب : مريم لا تقرينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى . ومن هناك وفوق قليل دار البطركية ، وفوقها بقليل دير المثلثة الهداية ، يسكنوه راهبات ؛ لأن من هناك

(١) يقصد « إذا ما طلعت » .

وقفت أم الإله وعابنت ابنها مصلوباً ، وانتعجت نادبة . ومن القبر المقدس كنحو غلوة في ذلك الجانب ، يوجد اثني عشرة ديراً وغربي القبر المقدس : الأول للسابق ، الثاني للمعظم جاورجيوس^(١) الثالث للجيل ديمتريوس^(٢) ، الرابع للقديس نيقولاوس^(٣)

(١) جاورجيوس : يظن أن القديس جاورجيوس (سان جورج) قد استشهد في أخريات القرن الثالث أو بداية الرابع . ويحتفل بيوم عيده في الثالث والعشرين من أبريل . ومار جرجس أو سان جورج هو قديس أنجلترا وولى شبان الكشافه وعلى اسمه تقوم كنائس لا تحصى في العالم ، ويهتم المشرق به وبعبده اهتماماً زائداً . على أنه ليست هنالك مادة تاريخية عن حياته ، وكان من نتيجة تخطيط الأساطير التي تدور حول هذا الشهيد أن خلص البعض من الدارسين إلى أن مار جرجس ما هو إلا شخصية أسطورية . هذا ولقد بدأ تبجيل القديس في صورة الجندي « العلوى » منذ وقت مبكر ، وكان مركز هذه الفكرة في ديبوسبولس وهي مدينة اللد الآن . وربما كان أن سان جورج قد استشهد هناك في نهاية القرن الثالث أو بداية الرابع .

أما الأساطير التي تدور حوله فهي عديدة ، ولا يقبلها المؤرخون على إطلاقها . ولعل أشهر هذه الروايات ماورد في كتاب « الأسطورة الذهبية » ، الذي ظهر في العصور الوسطى المتأخرة ، حيث يبدو القديس « فارساً من كبادوكيا » ، ثم منقذاً لفتاة من مدينة سيلين في ليبيا من أنياب التنين .. الأمر الذي أدى إلى اعتناق الآلاف من أهالي هذا الإقليم للمسيحية . وبعد عديد من المعجزات التي تمت على يديه ، سقط سان جورج ضحية لاضطهاد دقلديانوس الذي أمر بقطع رأسه في نيقوميديا .

أما كيف أصبح سان جورج القديس الحامي لأنجلترا فهو أمر محير ، والمعروف أن اسمه كان متداولاً في أنجلترا وإيرلندة قبل الغزو النورماندى لأنجلترا (١٠٦٦) . ويرجح أن الصليبيين الأنجليز العائدين من الأرض المقدسة قد ساعدوا على ازدياد شعبية هذا القديس بين بني جلدتهم . وفي سنة ١٤١٥ أصبح يوم عيده احتفالاً على رأس سائر الاحتفالات في أنجلترا .

(٢) ديمتريوس : لا يعرف تاريخه بالضبط ، وإنما يحتفل بعبده في الثامن من أكتوبر . ويظن أنه كان من بين شمامسة سرميوم (متروفتشا في الصرب) . على أن مركز شهرته كان في سالونكا . والقصة التي تدور حوله خواها أنه قبض عليه بسبب تبشيره بالمسيحية في سالونكا ، على عهد الإمبراطور ماكسميان ، ثم قتل . ثم اكتسبت قصته لسات أسطورية فقبل عنه لأنه كان بروقتل (قنصلاً سابقاً) وأنه من مشاهير المحاربين من طراز سان جورج . ولقد ازدادت شعبيته تدريجاً وانتقلت من سالونكا إلى سائر أقطار المشرق .

(٣) نيقولاوس : عاش في القرن الرابع ، ويحتفل بعبده في السادس من ديسمبر . =

الخامس للقديسة تقلا^(١) ، السادس للقديسة حنة^(٢) ، السابع للقديس ايثيموس^(٣)

== المعروف أنه كانت توجد كنيسة في القسطنطينية باسم هذا الأسقف القديس في القرن السادس . وبداية من القرن التاسع — في المشرق — والحادي عشر في غرب أوروبا صار نيقولاوس أكثر القديسين شعبية ، فغدا القديس الحامي للبدان وولايات وابروشيات ومدن لا تحصى ولانعد ، كما اتخذ البحارة والصبية والتجار ولياً لهم يتركون بذكر اسمه وترتيل الأناشيد له ، كما تسابق الفنانون في تصويره بالرسم والنحت . ورغم كل الأساطير التي تدور حول هذا القديس ، فإنه من الناحية التاريخية لا نكاد نعرف عنه سوى توليه منصب الأسقفية في مدينة ميرا في جنوب غربي آسيا الصغرى في القرن الرابع .

ولقد شاعت أسطورته في القرن التاسع . ولعل أهم ما ورد فيها أن القديس انتشل ثلاث فتيات من وحل الدعارة بأن ألقى إلى كل منهن من خلال نافذتها حقيبة مملأ بالذهب . ويحكى عنه أيضاً أنه أحيا من الموت ثلاثة صبية كانوا قد اغتيلوا عدواناً . كما انه قد أنقذ — وفقاً للأسطورة ذاتها — بعض البحارة من موت محقق على مقربة من الشاطئ الآسيوي ومنصة إيقيا . على أن التاريخ لا يؤيد هذا ولا يعلم شيئاً عن قصة استشهادها في سبيل المسيحية قبيل اعتلاء قسطنطين العرش . كذلك قيل إنه كان من بين الحضور في مجمع نيقية المسكوني (٣٢٥ م) ، ولكن هذا غير ثابت أيضاً .

والقديس نيقولاوس بوصفه ولياً للصبية هو الأصل في قصة « بابا نويل » ومصدر الإلهام لشخصية « سانتا كلوز » . وفي سنة ١٠٨٧ سرق بعض التجار الإيطاليين رفات القديس من ميرا ونقلوها إلى مدينة باري في أپوليا ، ولا زالت باقية هناك . وهذا الرمز المميز للقديس نيقولاوس عبارة عن ثلاث كرات .

(١) تقلا : وهي شهيدة عذراء من القرن الأول ، ويحتفل بعيدها في الثالث والعشرين من سبتمبر ، وتستمد أسطورتها من « أعمال القديس بولس الرسول » التي كتبت حوالي سنة ١٧٠ م . ومنها نعلم أن تقلا كانت من مواطي قونية ، وأنها اعتنقت المسيحية على يد القديس بولس . وبعدها تخلت عن خطيبها ووهبت بتوليها لله ، مما عرضها لاضطهاد شديد . ولكن محاولات قتلها بالنار وبالوحوش المفترسة قد فشلت . وبعدها اعتزلت القديسة إلى كهف في مريا ملك على مقربة من سلوقية ، حيث عاشت على هذا المنوال سنين طوالاً . وعندما بلغت التسعين من العمر تعرضت تقلا مرة أخرى للاضطهاد هذه المرة من جانب رجال الطب الذين كانوا يحدونها على مقدرتها على الشفاء الروحي لسائر الأسقام . على أن صخرة كهفها قد أنقذتها من مكرهم ؛ إذ افتتحت الصخرة ليحتويها الكهف في عمقه شهيدة الإيمان والعجزة .

(٢) القديسة حنة انظر حاشية رقم (١) ص ١٦ .

(٣) ايثيموس : ولد هذا القديس في ميليتين سنة ٣٧٧ وتوفي في فلسطين سنة ٤٧٣ . ويحتفل بيوم عيده في العشرين من يناير . ولقد هاجر هذا القديس من وطنه =

الثامن للقديسة كاترينا^(١)، التاسع لرئيس الطغعات، العاشر أيضاً للقديس باسيليوس^(٢)

== في أرمينيا — وهو في الثلاثين من عمره — إلى فلسطين حيث توحّد راهبا في كهف ما بين أورشليم وجريكو . ويقال إن المسلمين كانوا يحترمون هذا الراهب المتوحّد خاصة بعد أن من الله بالشفاء على ابن لأحد السادة المسلمين بعد صلوات إيشيموس من أجل شفائه . كذلك نعلم أن الامبراطورة يودوكيا أرملة الامبراطور ثيودوسيوس الثاني كانت تستشير هذا القديس في مشكلاتها الروحية .

(١) كاترينا : لا يعلم لها تاريخ ، ويحتفل بعيدها في الخامس والعشرين من نوفمبر . والأسطورة التي تدور حول هذه القديسة تمثلها من أصل عريق ، على درجة وافية من الثقافة ، وذات جمال خارق . هذه الفتاة السكندرية وقفت في وجه الامبراطور ماكسنتيوس محتجة ضد العبادات الوثنية . ولما أتوا إليها بمخسّنين من فلاسفة الوثنية لم حاجتها انتصرت عليهم جميعاً بحسن منطقها وإيمانها . وكانت النتيجة أن أمر الامبراطور بإعدام هؤلاء الفلاسفة الخمسين . وقد افتتن ماكسنتيوس بكاترينا ورغب في الزواج منها لأن هي أنكرت مسيحيتها ، ولكنها رفضت مما جعله يتفنن في أساليب تعذيبها . وتقول الأسطورة أنها وهي حبيسة «زرناتها» كانت تقنات على الطعام الذي كانت تحمله إليها حمامة وادعة كل يوم ، كما أن المسيح قد ظهر لها في رؤية . وقد حاولت السلطات الوثنية تعذيبها على عجلة خشبية ذات أسنان حادة ، ولكن العجلة تمزقت لرباً فقتلت شظاياها عديداً من المتفرجين ، في حين أن القديسة لم تفس بسوء . وكان من نتائج هذه المعجزة أن اعتنق مائتان من جند الامبراطور الديانة المسيحية ؛ فأمر الامبراطور بقطع رؤوسهم جميعاً على التو . وفي نهاية الأمر قطع رأس كاترينا ، وهي تصلى من أجل البشر . على أن شرايينها فاضت لبناً بدلا من الدم . وقد حملت الملائكة جسدها الطاهر إلى جبل سيناء . كل هذا حسب روايات الأساطير .

على أننا لا نملك سجلات تعزز في قليل أو كثير شيئاً من هذا كله . وأغلب الظن أن تلك القصة من نسج خيال كاتب يوناني مبكر . هذا والرمز المصاحب لكاترينا هو «عجلتها» الأسطورية .

(٢) باسيليوس : ولد في قيصرية حوالى سنة ٣٣٠ ومات هناك في أول يناير ٣٧٩ ، ويحتفل بعيدة في ١٤ يونيو . ولد باسيليوس لعائلة مسيحية مرموقة الشان : فجدته ماكرينا ، ووالده باسيل الأكبر ووالدته إميليا ، وشقيقته الكبرى ماكرينا ، وشقيقاه الصغيران جريجورى من نيسا وبطرس من سبستيا — كل هؤلاء أعلام قديسون . وقد تلقى القديس تعليمه في مدارس قيصرية والقسطنطينية وأثينا ، حيث صادق القديس جريجورى من نازيا — تروس . وفي سنة ٣٥٧ قام برحلة زار خلالها البيوتات الديرانية في المشرق . ثم استقر بعدها راهباً في آنيزى على نهر إلبريس في بنطس . ويعتبر القديس باسيل هذا الأب الحقيقي للحركة الديرية في المشرق لأنه هو الذى وضم لجماعات الرهبان دساتيرهم وقوانينهم .

الحادى عشر يوحنا الثاولوغس^(١) ، الثانى عشر أيضاً للقديس جاورجيوس ، فهذه

== وفى سنة ٣٧٠ اختبر القديس أسقفاً قيصرياً . وهناك وقف ضد الإمبراطور فالتر الأريوسى وأتباعه ؛ مناصرة للعقيدة الأرثوذكسية . ولما استدعاه حاكم الولاية للتحقيق معه صاح فى وجهه « لعلك حتى اليوم لم تصادف أسقفاً حقيقياً يواجهك فى شجاعة » ؛ وكانت تلك الشجاعة سمة مميزة للقديس باسيليوس ، جعلت الإمبراطور ذاته يخشى بأسه وشعبيته .

ولعل أشهر ما قام به القديس أنه وهب ضيعة من ضياع قيصرية للخدمة العامة ، فأسس فيها كنيسة ومستشفى وداراً لضيفة الغرباء وبيوتاً لإيواء المعدمين والفقراء . وللقديس عديد من الرسائل والمواظ الشهيرة ، التى تكشف عن شخصيته وحبه للفقراء وكراهيته للامورين . وتتميز شخصيته أيضاً بعناد شديد . ومن بين ما خلفه رسالة لأبناء إخوته يحثهم فيها على دراسة الآداب والفلسفة الكلاسيكية (الوثنية) لتمهيد لهم الفهم الواعى لقواعد المسيحية . هذا ويعد باسيليوس واحداً من أشهر أربعة لاهوتيين فى الكنيسة البيزنطية .

(١) يوحنا اللاهوتى : (الثاولوغى) وهو واحد من أشهر تلاميذ المسيح الأثني عشر . توفى فى أفيسوس (؟) حوالى سنة ١٠٠ م ، ويحتفل بعيده فى السابع والعشرين من ديسمبر . كان يوحنا جليلاً ومن جماعة الصيادين ، وقد أشار المسيح عليه وأخيه القديس يعقوب الأكبر ، وهما يصلحان شباك الصيد ، أن يتركها ويتبعاه ففعل ذلك . وكان هذان الأخوان يتميزان بمحبة الطبع فأطلق عليهما المسيح كنية « ابني الرعد » . على أن المسيح قد اختارهما وبطرس الرسول لمشاهدة لحظة « التجلى » على الجبل ولما صاحبه وقت الآلام فى الجثمانية . ولقد جرى العرف على أن يوحنا هذا هو « التلميذ المحب لقلب المسيح الذى اتكأ على صدر سيده ليلة العشاء الأخير » . كما وأن المسيح وكل إليه — وهو على خشبة الصليب — رعاية السيدة مريم . وكان يوحنا أول من زار القبر الذى دُفن فيه المسيح بعد الصلب فى اليوم الثالث فوجده خالياً فاعترف على التوبة بقيامة المسيح . كذلك تعرف يوحنا على السيد المسيح بعد القيامة حين ظهر له عند بحيرة طبرية . وفى « أعمال الرسل » نجد يوحنا ملازماً لبطرس الرسول فى إثبات المعجزات وشفاء المرضى ، فى تحد صارخ لرؤساء الكهنة اليهود . كذلك كان يوحنا رفيقاً لبطرس فى سجنه ، ومصاحباً له فى رحلتهما التبشيرية إلى السامرة . ويطلق القديس بولس على يوحنا هذا وبطرس ويعقوب « عمدة كنيسة أورشليم » .

هذا وقد نفى يوحنا — كما يعترف هو نفسه فى سفر الرؤيا إلى جزيرة بطمس — من أجل كلمة الله ومن أجل شهادة يسوع المسيح . ويقال إنه قد أمضى آخر سنين حياته فى أفيسوس ولما توفى هناك . ويقول القديس جيروم أنه عندما بلغ يوحنا سن الشيخوخة ووهنت قوته عن القيام بالتبشير كان يكتفى بقوله للشعب « أحبوا بعضكم بعضاً — هذه هى وصاية السيد الرب ، فلئن اتبعتموها ففيها كل الكفاية » .

أما القصة التى تدور حول زيارة قام بها يوحنا إلى روما وحول إلقائه فى الزيت المغلى ونجاته ==

الديورة الموجودة إلى اليوم في أورشليم ، وهى بيد الآرتودكسيين . لكن في زمان الروم كانت الديورة والكسناثس ثلثائة خمسة وستين ، الذى أخذوا الأمم منها أكثرها . وشرق القبر المقدس ، داخل أورشليم أربع غلوات ، هناك قدس القديسين والهيكل الذى فيه علم المسيح ، الذى فيه دبح زخريا أبو يوحنا السابق . وهناك سمعان ، قابل الإلهة ، اقتبل المسيح . وهناك الآن يوجد حجر معلق بقدره الله . وهذا الهيكل فهو عظيم ، مدور البناء بقبب مرصعات ، ومزخرفات داخله ، وخارجه بالفيسفسه ، وصخر داره كبيرة رحبة . وفى الناحية الشرقية منه هناك الأربعة أبواب التى بهم دخل المسيح بالسعف والأغصان ، وهم مغلفات إلى اليوم . وبقربه دار ييلاطس والأبروطوريون ، ونازل منهم البركة الغنيمة ذات الخمسة أروقة . ومن القبر المقدس كنحو ثلاث غلوات قرب هناك بيت يواكيم ، وحنة^(١) أجداد المسيح وبقربه بير الحماة الذى ألقوا اليهود أرميا النبي فيه ، وهو من القبر المقدس كنحو أربع غلوات . فهذه الديورة كلها موجودة داخل أورشليم المقدسة .

وخارج أورشليم كنحو أربعة غلوات ، قبل القبر المقدس ، هناك بيت داوود ، وهو عظيم كبيراً ، الذى فيه رتل الزامير ، وعلى مازعموا معلمين كنيستنا بأن هناك مزعم الاله أن يعمل للمداينة (٢) فى مجيئه الثانى . وقرب منه وادى اللبكا الذى منه مزعم أن يجرى نهر النار . ونازل منه بقليل دير القديس يعقوب أخو الرب ، وهو بيد

== من الموت ، فهى أسطورية تماماً . ولذا فإن الكنيسة الرومانية فى سنة ١٩٦٠ قد أطلت تماماً الاحتفال بذكرى هذه القصة الخرافية فى السادس من مايو من كل عام . وقد جرى التقليد على نسب الإنجيل الرابع والرسائل الثلاث وسفر الرؤيا إلى يوحنا هذا .

ولكن بعض العلماء يشكون فى هذه النسبة . هذا والرمز المصاحب للقديس يوحنا هو النسر .

(١) هل هى القديسة حنة والدة العذراء مريم ؟ إذا كان الأمر كذلك فنحن نعلم أنه يحتفل بعيدها فى السادس والعشرين من يوليو . وهناك كتابات مبكرة مشكوك فى صحتها تنسب عادة للقديس يعقوب الحواري ، وفيها نبوءة عن مولد السيدة العذراء ، شبيهة بما ورد فى العهد القديم بقصة النبي صموئيل الذى من الله به على والدته حنة بعد أن كان الله قد أغلق رحمها فترة طويلة من الزمن .

(٢) أى الديونة .

الأرمن . ومن هناك بيت يوحنا الثاولوغى ، وقريب منه الهيكل الذى بناه سليمان ، وهو صهيون المقدسة ، وقريب منه بيت والدة الإله ، هناك صار العشاء السرى والقسل وحلول الروح القدس على الرسل القديسين ، وفيه كان رقود والدة الإله ، والتثام الرسل بالسحاب ، وجنزوها إلى الجسمانية ، وهناك قبور الأنبياء داوود وسليمان وشمعان الشيخ والقديس استفانوس ، ومساجد أخرى كثيرة . ومن صهيون المقدسة كنحو ميل من القبر المقدس مكان وطاه هناك بير القديس يعقوب وعين سلوان ، وحقل الفخار لمدفنة الغرباء ، بعدهم من القبر المقدس كنحو ميل . ومن هناك بأربعة غلوات قبر يعقوب أخو الرب الذى أرموه من فوق جناح الهيكل . وشرقي القبر المقدس خارج أورشليم هناك الجسمانية : هيكل مسقوف وباب لطيف ، ولها ثمانية عواميد ، وبتنزل فى درج ثمانية وأربعين درجة نجد الهيكل أسفل . وفي وسط الهيكل قبة صخرية ، وفي داخلها قبر والدة الإله للقدس ، من رخام أبيض لطيف ، ومعلق هناك عشرة قناديل ، وهناك باب مغلق . ومن هناك ، على مازعموا مزعم أن يخرج نهر النار . وبقرى تلك المغارة التى كان بها المسيح مخفى مع الرسل ، وفي ليلة الآلام أتى يهودا بالجمع ومسكوا المسيح ، ومضوا به إلى رؤساء الكهنة . وهناك قطع بطرس أذن ملخص^(١) . ومن هناك بقليل المسكان الذى صلا فيه المسيح ، وبجانبه المسكان الذى جلس فيه ونظر إلى أورشليم وقال : يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها ، هوذا أترك لكم بيتكم خراباً ، ولا يترك حجر على حجر . ومن الجسمانية إلى القبر المقدس مقدار ميل واحد ، هناك جبل الزيتون حيث صعد المسيح إلى السموات . وفيه هيكل عظيم ، وداخله قبة على خمسة عشر عاموداً رخام ، وداخل القبة أقدام المسيح مطبوعات فى الصخر لما صعد ، ومعلق أربعة قناديل غير مطفأة ، ومن هناك بتنزل ثلاثين درجة هناك قبر القديسة بلاجيا^(٢) بقرب الحائط بمقدار نصف قدم إنسان . ومن أراد أن يعبر هناك يحتاج

(١) ملخص : كان ملخص واحداً من أتباع رئيس كهنة اليهود ، الذى جاء مع الحائن يهوذا للقبض على المسيح . وعندها ثار بطرس الرسول وضرب التابع بسيفه فقطع أذنه ولكن المسيح وبغ تلميذه بطرس على هذه الفعلة ، وأمسك بالأذن المصلومة ووضعها مكانها معافاة تماماً .

(٢) بلاجيا : هى پلاجيا النابتة ، ولا نعرف لها تاريخاً محدداً ، وإنما يحتفل بعيدها فى =

أن يعترف بخطاياه وإلا يمسك مسكاً غير منظور ولا يقدر أن يخرج . ومن هناك القلابة التي مسك فيها ، مشمول بها ثلاث قناديل غير مظفأة . ومن هناك نحو غلوتين قانا الجليل الذي عمل المسيح أول أعجوبه بعرس قانا وحول الماء خمرآ . وكان في الأول فيها كنيسة إلا أنها انهدمت ويقولون أن ملشيساداق^(١) في جبل الزيتون جلس . ومن أورشليم كنحو ميل شرقى جبل الزيتون هناك بيت عنيا وقبر العازر انصديق مرخم ، وقبره الحجر الذي جلس عليه المسيح في الطريق . وداخل القبر مغارة فيها قبر مرتا ومريم أخوان^(٢) العازر . ومن بيت عنيا كنحو ميلين من القبر المقدس هناك طريق ريمحا والأردن . وفي الطريق عين الرسل ، وبقرها دير القديس افثيموس في رأس الجبل . ومن أورشليم نحو خمسة عشر ميل في طاه هناك دير السيدة ، وهناك عين يشوع بن نون رئيس جنود قوات الرب . وفي ريمحا المياه المالحة التي حولها الإشع إلى حلاوة . وهناك الجبل الذي صام فيه المسيح أربعين يوماً . ومن أورشليم مقدار عشرين ميل من هناك ينزل لدير القديس يوحنا السابق ونهر الأردن الذي فيه اعتمد المسيح وعلى حافة الأردن عين يوحنا الروح القدس ، وجاز الأردن المغارة التي اختفى فيها إيلياس ، وهناك اختطف بالمركة النارية . ومن الأردن إلى أورشليم أربعين ميل ، وجاز الأردن جبل عالي فيه صلى موسى لما أزمع أن يموت ، وهناك قبره . وفي البرية الجوانية هناك قبر القديسة مريم التي نسكت سبعة وأربعين سنة ، بعده من أورشليم عشرين يوماً ، ومن ناحية

== الثامن من أكتوبر ولهذه القديسة كنية هي «مارجريتو» ومعناها ذات اللآلي، الفائقة الجمال .

وقد عاشت بلاجيا حياة خليعة ماجنة وهي في شبابه المبكر في مدينة انطاكية ، الأمر الذي لفت نظر نونس أسقف الرها ، فقال عنها في إحدى المناسبات : « إن في هذه الفتاة الماجة درساً لنا نحن الأساقفة . فلو أننا أولينا اهتماماً بالرعية وبأرواحنا مثل هذا الاهتمام الذي توليه الفتاة بلاجيا لجمالها وطريقة رقصها لوصلنا حد الكمال » . ولقد تأثرت الفتاة بلاجيا بمواعظ هذا الأسقف ورغبت في التوبة الصادقة ، فخلعت عن ذاتها رداء الدنيا وقبلت المعمودية . وبعدها ذهبت إلى أورشليم وتكررت في زى الرجال واختارت لها كهفاً قصصاً على جبل الزيتون عاشت فيه حياة الزهد والتوبة ، متخذة اسم بلاجيوس .

(١) ملكيصادق .

(٢) أختي .

الأردن اليمين هناك صدموم والبحيرة الميتة وموضع لوط . ويقولون إن في ذلك المكان تحته الجحيم ، بعده من أورشليم ثلاثين ميل . وهناك تجد دير القديس جراسيموس الذى كان يخدمه الأسد . وفوق صوب ناحية أورشليم في جبل هناك سيق مارسابا^(١) ، وقبره والدير واقف إلى اليوم مثل وادى . وأسفل منه الينبوع الذى أخرجه القديس بصلاته ، والكنيسة بقبب ومصورة باللازورد . وهناك قلاية القديس يوحنا الدمشقي^(٢) . وفي زمان القديس مارسابا كان في الدير أربعة

(١) مار سابا ؛ ولد القديس ساباس بجوار قصيرة على مقربة من كبادوكيا في سنة ٤٣٩ وتوفي في مار سابا سنة ٥٣٢ . ويحتفل بعيدة في الخامس من ديسمبر . كان مارسابا رئيساً ديراناً ذا نفوذ كبير في تطوير الحياة الرهبانية في المشرق . وقد تتلمذ على يد القديس إيوثيموس العظيم . وبعد قضاء بضع سنوات راهباً متوحداً في بقاع مختلفة من فلسطين ، قام في سنة ٤٧٨ بتأسيس بيت ديراني في البقعة ما بين أورشليم والبحر الميت . وقد نمت هذه الجماعة وازدهرت ، وفي عام ٤٩٣ صار القديس مشرفاً على سائر البيوتات الجماعية الديرانية في فلسطين . ولقد شارك ساباس في نشاط الكنيسة فأوفد مرتين من قبل بطريرك أورشليم في مهمات كنسية إلى القسطنطينية . وقد قام كيرلس من سكيزوبولس بكتابة سيرة مارسابا . هذا ولا يزال دير مارسابا قائماً حتى الآن ، عامراً بالرهبان ، فهو بهذا من أقدم أديرة العالم .

(٢) يوحنا الدمشقي : لاهوتي مرموق وكاتب ترانيم كنسية ذائعة الصيت في الشرق والغرب . ولد القديس في دمشق سنة ٦٧٥ وتوفي على مقربة من أورشليم سنة ٧٤٩ . ويحتفل بيوم عيدة في السابع والعشرين من مارس .

ويعتبر يوحنا هذا آخر الآباء الأجداد في تاريخ الكنيسة الشرقية .

وقد شغل والده منصباً هاماً في بلاط الخليفة عبد الملك بن مروان في دمشق . ويقال إن والده استخدم راهباً يونانياً من كلابريا ، كان قد وقع أسيراً في يد المسلمين ، لتعليم ابنه يوحنا . وقد خلف يوحنا ، أو منصور ، والده في بلاط الخليفة الأموي لبضع سنين .

وعندما أقدم الإمبراطور ليو الثالث الألسورى على تحطيم الأيقونات في الإمبراطورية البيزنطية ، تصدى له يوحنا الدمشقي ، تحت حماية الخليفة ، فهاجمه هجوماً عنيفاً . وقد اختار يوحنا الحياة الديرية وأصبح من أبناء مارسابا ، حيث عاش حتى وفاته . ولعل أشهر ما كتب القديس : « يذبوع المعرفة » التي تموى مقالة هامة عن « الإيمان الأرثوذكسى » . وقد كان لكتاباته أثر بالغ في الغرب في العصور الوسطى . كذلك له ثلاث مواعظ رائعة عن صعود جسد السيدة العذراء بعد موتها . ولا زالت ترانيمه تنشد في قداسات الكنيسة اليونانية حتى اليوم .

عشر ألف راهب ، وهو من أورشليم مقدار اثني عشر ميل . وبتطلع لتتوجه إلى أورشليم تجد دير القديس ثاودوسيوس^(١) رئيس الديارة ، بعده من أورشليم ثمانية أميال . وفوقه دير القديس مار الياس^(٢) في طريق بيت لحم ، والهيكل بقرب . هناك أتى إليه الملك وقال له : قم كل واشرب . لأن الطريق مسافتها منك بعيدة . وفي هذه الوادي جاب يوسف والدة الإله إلى الحفرة ليخلى سبيلها ، وأتى الملك وقال له : يا يوسف ابن داوود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك . ومن هناك بتمضى إلى بيت لحم ، وهو هيكل طويل فتجد في الطريق قبر راحيل ، بقبته صخرة ، وقرب من هناك بيت لحم وهو هيكل طويل مستقوف بأخشاب ، ومن فوق برصاص ، ومصور بالفسيقة ، وفيه واحد وأربعين عمود ، والأرضية جميعها رخام . وفي ناحية اليمين حوض المعمودية رخام أحمر ، وعن شمال الهيكل بتزل بأربعة عشر درجة تجد مغارة التي ولد فيها المسيح ، المولد نحو المشرق ، والمذود نحو المغرب ، ومشعول فيهما عشرة فتاديل غير مطفاة ، والمغارة جميعها ملبسة برخام ،

(١) ثاودوسيوس رئيس الديارة : ولد في كبادوكيا حوالى سنة ٤٢٣ ، وتوفى على مقربة من بيت لحم سنة ٥٢٩ . ويحتفل بيوم عيده في الحادى عشر من يناير . ترك هذا القديس عائلته وهو في الثلاثين من عمره واستقر به الحال في فلسطين ، حيث أسس جماعة رهبانية على مقربة من بيت لحم . وسرعان ما ازدهر شأن تلك الجماعة التي كانت تضم رهبانا من أجناس ولغات مختلفة . ولقد اشتهرت تلك المؤسسة الديارنية بخدماتها الجليلة لصالح المرضى والمسنين وضعاف العقول . وقد كان ثاودوسيوس صديقاً مقرباً للقديس مارسابا ، الذي عينه رئيساً للديارة في فلسطين . وكان القديس معارضاً شديداً للمنافزة (أصحاب الطبيعة الواحدة) ، الأمر الذي دفع الإمبراطور أناستاسيوس إلى خلعته من منصبه في رئاسة الديارة ولكنه سرعان ما أعيد إلى وظيفته . وقد توفى القديس عن مائة وخمسين عاماً .

(٢) مار الياس : هذا الشهيد ورفاقه الأربعة الآخرون ولدوا جميعا في مصر واستشهدوا سنة ٣٠٩ في قيسارية . ويحتفل بيوم عيدهم في السادس عشر من فبراير . وقد سجل المؤرخ الكنسى الرموق يوسبيوس أسقف قيسارية سيرة هؤلاء الشهداء المصريين : فهم خمسة من أبناء مصر دفعتهم المحبة ودوافع الشفقة إلى اصطحاب نفر من بني جلدتهم إلى حاجر كيليكيا ، بعد أن حكمت السلطات الإمبراطورية عليهم بالأشغال الشاقة فيها ، وكان ذلك بسبب تحسكهم ببادئ العقيدة المسيحية . وأثناء عودة هؤلاء الخمسة من كيليكيا استوقفهم سلطات قيسارية عند بواباتها وسألهم عن أسمائهم فذكروها كالآتي : الياس ، جريى ، اشعيا ، صموئيل ودنيال . ولما سألتهم السلطات عن موطنهم الأصلي ، ردوا قائلين «أورشليم» ، يقصدون «أورشليم السماوية لا الأرضية» بطبيعة الحال . وفي الحال أمر حاكم قيسارية بتعذيبهم ليحصل منهم على معلومات حقيقية ، ولكنهم آثروا الصمت ونالوا لأكليل الشهادة .

والأبواب هي من نحاس أصفر . ومن ناحية الهيكل اليمنى يتطلع في خمسة عشر درجة ويتدخل إلى هيكل القديس جاورجيوس ، وخلف الهيكل نحو غلوتين مكان الرعاة . وفي الأول كان هناك كنيسة عظيمة ، ولسكنها خربت ، ومن بيت لحم إلى أورشليم ستة أميال . ومن جهة المغرب هناك مكان إبراهيم عند البلوطة السوداء ، حيث كان يضيف الغرباء ، ونظر الثالوث للقدس ، وداخل بيته قبره ، وهي من أورشليم ثلاثين ميل . ومن هناك ثلاثين ميل قلابة القديس خاريطن^(١) ، وبحيرة طبرية حيث كانوا الرسل يصطادون ، بعدها عن قلابة القديس ثلاثة أيام حيث قال لهم المسيح : تعالوا وراى لأجعلكم تصيدون الناس . وفي تلك الناحية الجبل الذى مضت إليه والددة الإله وسلمت على الشيع . وفوق منه الصخرة التى انشقت واقتبلت السابق مع أمه اليسع . وهناك كنيسة موضع الذى ولد السابق . وأنت جأت إلى أورشليم قبلها بميلين ، هناك كنيسة المصلبة وهو هيكل عظيم بقبة ومبنى دايره كمثل قلعه بباب حديد ، ومعلق أربعة قناديل . وفي مجيئك إلى أورشليم كنحو خمسة غلوات تجد دير القديس بايلا ، وهناك فوق الحجر الذى جلست عليه والددة الإله . فداير مدينة أورشليم خمسة أميال .

فهذه البنايات العجيبة كلها التى بينها باختصار عملتها القديسة المغبولة هيلانة ، لما كانت حاضرة فى أورشليم ، وخلفت وكلاء لمهارة البقية ، وأعطتهم ، المحبة لله ، ذهباً كثيراً ، وعملت ذلك تذكاراً لها ولابنها قسطنطين الملك المشابه الرسل^(٢) .

(١) خاريطن : كل ما نعلمه عن هذا القديس أنه كان متوحداً فى الكهف فى بيرة تكوه جنوب شرقى بيت لحم ، وأن هذه البقعة بالذات قد كانت المكان المحبب لقلب القديس سرياقوس الذى توفى سنة ٥٥٧ .

(٢) اعتبر كتاب الكنيسة الباكرون قسطنطين العظيم مساوياً لحوارى المسيح أو تلاميذه ؛ فهو على هذا الرسول الثالث عشر .